مَقامات البَهلولِ الأخِير

تأليف: د. سفيان الجنابي

٢٠١٣ م

مَقامات

البَهلولِ الأَخِير

تأليف:

د. سفيان الجنابي

٢٠١٣ م

الإهـــــداء

إلى كلّ قلبٍ أصابَه سَهمُ نورِ الحقّ

فانبَعثَ يشقُّ أستارَ الظلامِ

ويحطّمُ أغلالَ الباطلِ . .

سـفيان

المقـدمـــة

بسـم الله الرحمن الرحيـم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على نبينا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحبه المكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

أما بعد:

فإن للأدب والفن شأناً خطيراً في حياة البشرية على مر العصور، فرسالتهما سلاح نووي استراتيجي ذو حدّين، لذا فالمسؤولية في التعامل معهما هنا تكون عظيمة.. وبهذا المنظار ينبغي أن يُفهم الخلاف الفقهي في هكذا مسائل، من بعد إمعان النظر بعين البصيرة في الكون الذي أمامنا، والذي هو قرآننا المنظور، لنعرف حجمنا الحقيقي فيه.. وعندها سيُفتح أمامنا ما كان مغلقاً، فنرى ألواناً لم تألفها عيوننا من قبل، ونسمع ألحاناً تطرق مسامعنا لأول مرة..

ولغة الأدب والفن غالباً ما تقوم على التلميح بدل التصريح، وعلى الكناية والترميز لغرض تجاوز قيود ظواهر الألفاظ إلى فضاء المعنى الواسع الرحب.. والتلميح منهج نبوي أصيل، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يرض عن أمر يقول: ما بال أقوام يصنعون

كذا وكذا، دون أن يذكر أسماءهم، إذ الغاية تفنيد العمل السيء، لا القدح بصاحبه.. ولأن المدلولات ستتعدد حتماً، فوجب حسن الظن بالمقابل، وتأويل كلامه على خير الوجوه ما وجدنا لذلك سبيلاً.. أما من قصرت فطنته عن ذلك، فليس هذا ميدانه، فإن لم يوفقه الله تعالى إلى عالم خبير يفك له ما استغلق أمامه، فليلذ بالنصيحة المحمدية الغالية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، عندما أمرنا إما بقول الخير وإما بالصمت..

وقد كتبت مادة هذا الكتاب كخواطر متفرقة بشكل متقطع خلال المدة بين عامي ٢٠٠٦م و٢٠١٢م، وفي أماكن مختلفة.. ثم رأيتُ مؤخراً أن أجمعها في نسق وكتاب واحد، فكانت هذه المقامات.. والتي لم يهمني فيها أن تكون مشابهة أو مخالفة لمقامات الحريري أو الهمذاني أو غير ذلك مما سبقها من المقامات، بقدر ما أهمني إيصال الرسالة المضمنة فيها دون تكلف في الصنعة أو الأسلوب. وقد تُذكر فيها بعض الألفاظ مما يخالف الشرع وعقيدة التوحيد، أو مما يخالف الذوق السليم، ولكن هذه العبارات إنما ترد حكاية على لسان بعض شخصيات هذه المقامات، وكلها شخصيات افتراضية مجردة، لم يقصد فيها الإساءة إلى أحد، ولكن الصنعة الأدبية تطلبتْ ذلك.. وناقل الكفر ليس بكافرٍ إجماعاً، وخصوصاً عندما يكون هذا النقل هو من باب تفنيد هذا الكفر وتبغيضه إلى الناس،كما منهج وهدف هذا

الكتاب.. وقد حكى الحق جلّ وعلا في كتابه الكريم على ألسنة الكفار من أمثال ذلك الكثير.. ولله تعالى المثل الأعلى.

كما يحوي هذا الكتاب على بعض المخططات التجريدية الموجزة، وهي مستلهمة من بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة. والأصل فيها ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه[1] عن المخطط التوضيحي الذي خطه رسول الله صلى الله عليه وسلم، على الأرض أمام أصحابه، ليوضح لهم صورياً حال الإنسان وهو يطيل الأمل، وأجله قد أحاط به، والأعراض والأكدار حوله من كل جانب..

وأظن أن هذا الحديث يشكل قاعدة الانطلاق الصلبة للفن الإسلامي الملتزم والهادف، الذي يأخذ بالمباح من الوسائل الفنية، وينطلق بها لتهذيب الروح، وصقل القلب، وإعادة بث الإحساس بالجمال الصادق في النفوس، وبما يسهم في إعادة صياغة الإنسان وفق الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وصياغة المجتمعات وفق المقاييس الإسلامية الراقية، التي تطلق العنان لنهج أصيل في الدعوة إلى دين الله، وسلوك قويم في درب بناء الحضارة..

---

[1] أخرج الامام البخاري رحمه الله في صحيحه من حديث عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ، وَقَالَ: "هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا".

والطريقة التصويرية التي تعتمد عليها المخططات والرسوم لها أهميتها الكبرى في إيصال الفكرة أو المعلومة المرادة بأسرع وأكفأ الأساليب.. لذلك كثر في القرآن الكريم ذكر البصر مع السمع والقلب، باعتبارها أمهات وسائل الإدراك.. وقد وضعتُ عناوينَ لهذه المخططات التجريدية لتوضيحها، ولم أذكر نص الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية الشريفة التي تشير إليها، أو تؤصلها، لوضوحها من ناحية، وجرياً مع أسلوب الترميز التجريد الذي اخترناه لهذا الكتاب.

وختاماً لا يفوتني أن أشكر الأخ الدكتور محمد جاسم الساطوري لتفضله بمراجعة الكتاب لغوياً، والشكر موصول لكل من قرأه أو أسهم في نشره..

د. ســـفيان الجنــابي

الأنبار– العراق

ليلة الإثنين ٦ صفر ١٤٣٥ هـ

الموافق ٢٠١٣/١٢/٨ م

المقامــة الأولــى:
المواطَنةُ في بلدةِ الأغبياء

يحكى عن بلدة في اللامكان، يتراجع فيها الزمان إلى الوراء، اسمها بلدة الأغبياء، عندما يبلغ فيها الشخص ثمانية عشر عاماً، يتم اختباره للتأكد هل أنه من مواطني تلك البلدة المخلصين أم لا.. ويتضمن الاختبار (فائق السرية) مجموعة من الأسئلة التي يتوجب على الشخص الإجابة عليها جميعاً، وهذه نماذج منها:

١. ماهو حاصل جمع واحد زائد واحد؟
٢. هل الماء الذي نشربه غازٌ أو سائلٌ أو جسمٌ صلب؟
٣. من أية جهة تشرق الشمس؟ أمن الشرق أم من الغرب؟
٤. لماذا تموت السمكة إذا أخرجناها من الماء؟

. . . . .

وبعد اجراء هذا الامتحان الوزاري، وعلى مستوى البلدة العظيمة كلها، مرة واحدة في كل عام، تتولى لجنة مختارة بعناية فائقة، تصحيح الاجابات (التي تُعدّ من الأسرار العليا لتلك البلدة)، ومن ثَمّ يتُم تحديد أمر مواطَنة الممتحَن من عدمها (أو بالأحرى من عدمه).. وفقا للمعايير الآتية:

أ- كل من فشل في الإجابة على كل الأسئلة، فهو مواطن صالح من الدرجة الأولى، ولا مانع من توليته أي منصب حكومي.

ب- من أجاب إجابة صحيحة على ٢٥% من الأسئلة فما دون، فهو مواطن مشكوك في ولائه، يوضع تحت المراقبة لحين دخوله الاختبار التالي، والذي سيكون الفرصة الأخيرة له لإثبات مواطَنته من خلال الفشل في الإجابة على جميع الأسئلة.. فإن تكررت هذه الحالة معه فسوف يعامل المعاملة المذكورة في الفقرة (ت) اللاحقة.

ت- من أجاب إجابة صحيحة على ٢٥% - ٥٠% من الأسئلة، أو تكررت معه الإجابة المذكورة في الفقرة (ب)، فهو مواطن من الدرجة الثانية، يمنع من مواصلة التعليم، ومن العمل الحكومي، وليس له حق التصويت في الانتخابات.

ث- إذا أجاب أحد ما إجابة صحيحة على أكثر من ٥٠% من الأسئلة، فهذا لا شك عميل خطير لبلدة معادية، ويجب ان يعدم فورا، دون محاكمة، وبسرية تامة، مع اتلاف الجثة.

المقامــة الثانيــة:
الـضـبــعُ الأمـيــــرُ

منذ ساعات الصباح الباكر، امتلأت شوارع المدينة على غير عادتها، بجيوش من عمال النظافة والصباغين والمزارعين، يزيلون عنها قصارى ما يستطيعون.. من أوساخ تراكمت على مر الزمن، ويطلون أرصفتها الكالحة بألوان براقة لم تعتد عليها، ويضعون شتلات من الورود المسكينة في مساحات ترابية ضيقة.. اعتادتها القمامة مسكناً لها..

سأل أحدهم صاحبه: ما الذي يجري في مدينتنا اليوم؟!

أجابه: ألا تعلم أن أميرنا الضبع عائد اليوم من زيارته السرية، التي أصبحت معلنة، إلى مولانا الملك؟

خيم الاستغراب على الأول لأنه أحس بمزيج غريب من البلاهة والحماقة والغباء، يملؤه من رأسه إلى أخمص القدم.. كونه لا يعرف بأمر مثل هذا، يفترض أن يعرف به الجميع، فقال مرتبكاً: ولكن كيف عرفت أنت بهذا؟

أجابه الصاحب: يبدو أنك لا تتابع الاعلام جيدا.. فزيارة أميرنا الضبع التي بدأت سرية جدا إلى مولانا الملك، أعلن عن تفاصيلها في

يومها الأخير، بعد أن تكللت الزيارة بالنجاح الباهر.. وأميرنا الآن في الطريق إلينا، ولم يبق على وصوله ربما إلا القليل..

عَلّق الأول الذي لازال مرتبكا بكلمات سبقت من على لسانه: الآن فهمت لماذا هم ينظفون ويصبغون.. هذه الشوارع عينها فقط، والتي سيمر بها موكب الأمير!

وسرعان ما ادرك مدى حمقه، لأنه تلفظ بكلام كهذا.. حتى أمام صاحبه الذي تربطه به علاقة امتدت عشرين سنة أو يزيد. ولكنه لم يعرف كيف يمكن له أن يصلح الموقف، فلاذ بصمت مفزع..

قال له صاحبه الذي فهم جيداً دروس الحياة في مدينة أميرها ضبعٌ: أنت تعلم أن لكل شيء أولويات.. ولاشك أنهم يعرفون أولويات عملهم أفضل مني ومنك، فهم يستلهمون خططهم من فكر أميرنا النيّر، ومن حكمته المعهودة.. فهو كما يعرف الجميع، يستطيع النظر أبعد مما نستطيع.. لأنه ينحدر من سلالة الآلهة.. وآلهة السماء والأرض جميعا تقف من خلفه وتسدد عمله، وتدمر أعداءه!!!

بادر الأول مسرعا بالاستدراك: كلامك دقيق جداً، ففعلا لطالما أذهلني كيف أن أميرنا الضبع، ومساعديه، كانوا يدركون أشياء تفوت الجميع من أمثالي.. إنه فعلا ضبعٌ مسددٌ.

أحس الأول بشيء من الارتياح الغريب، أنه ربما قد استطاع تصحيح الهفوة التي ما كان يفترض بمثله أن يقع بها.. وسيطر على الاثنين صمتٌ طويلٌ وهما يواصلان ما تبقى لهما من طريق إلى مكان العمل.

كان واضحا أن الاثنين شاردا الذهن، كلٌ في مكان مختلف. ولم يكن بإمكان الأول أن يعرف أين قد شرد ذهن صاحبه، ولم يكن يمتلك من الفضول ما يكفي لدفعه لمحاولة معرفة ذلك، غير أن صاحبه كانت مقلتاه تصغران وتكبران، وترتسم على شفتيه ابتسامات صغيرة صفراء، بين آونة وأخرى، وهو مستمر في شروده.. دون أن ينتبه الأول لذلك.

* * * * *

أما الضبع الأمير، فكانت قد وصلت إليه منذ أسابيع أنباءٌ مؤكدةٌ مفادها أن منافسين آخرين له، من الضباع، قد استطاعوا الوصول إلى الملك ومقابلته، من خلال دعم بعض حاشية الملك، وقام كل واحد منهم خلال تلك المقابلة بإبراز مواهبه الدونية اللازمة لتحقيق كل ما يرغب فيه الملك من فساد وإفساد، قبل حتى أن تخطر تلك الرغبات بباله، وبينوا له كيف أنهم يتفوقون في ذلك على الضبع الأمير، الذي ربما يكون قد فقد الكثير من مواهبه الدونية السابقة، ولم يعد يستطيع تجديد انحطاطه بما يكفي لتحقيق متطلبات المرحلة المستقبلية اللاحقة.

وقد كانت هذه الأنباء مفزعة حقاً للضبع الأمير، كونها تعني أن الملك بدأ يعيد حساباته فيمن يصلح أكثر لإفساد المدينة.. وفعلاً فقد طلب الملك من بعض حاشيته المقربين اعداد تقرير مفصل بمزايا كل من المرشحين الجدد، ومقارنتها مع المزايا الدونية للأمير الحالي. لذلك قرر الضبع الأمير أنه لا يمكن أن يضيع الوقت، وعليه التدارك، فقدم لحاشية الملك هدايا أعظم بكثير من تلك التي اعتاد تقديمها لهم طيلة السنوات السابقة، لأن الأمر لم يعد يحتمل التراخي.. فنظموا له زيارة سرية هي بمثابة الفرصة الأخيرة له، قبل أن يتخذ الملك قراره بشأن تلك المدينة.

* * * * *

استمرت زيارة الضبع الأمير لقصر مليكه أسبوعاً كاملاً، من الجمعة إلى الجمعة، قام الضبع الأمير خلالها يومياً بمسح وتلميع جميع أحذية الملك، بشفتيه.. وبتقبيل بواطن أقدام كل جواري القصر، وبالسهر على راحة ونظافة كل أبناء الزنى الذين امتلأت بهم ثكنات جنود القصر، فهم عماد الجيش الملكي في المستقبل. وكان الضبع الأمير في كل ليلة يرتدي ملابس المهرجين، ويقدم عروضاً هزلية يسترضي بها جلالة الملك.

وفي اليوم قبل الأخير لتلك الزيارة الميمونة، عُقد اجتماع حاسم بين رئيس مستشاري الملك وبين الضبع الأمير. قال رئيس المستشارين: لقد أعجبنا ما قمت به خلال الأيام السابقة، ولكنك تعلم أننا وقد ولّتنا الآلهة زمام الأمور في المملكة، فلابد لنا من أن نسير بالطريق الذي يضمن تحقيق رغبات آلهتنا المقدسة.. من افساد كل كائن في المملكة، وفي العالم..

أجاب الضبع مسرعاً: طبعاً يا أستاذنا، ونحن طوع أيديكم ورهن إشارتكم!

أكمل رئيس المستشارين: لذلك فقد فكرنا بكل الخيارات الممكنة، واستقدمنا أفسد الفاسدين وحثالة المفسدين لمقابلتنا.. لأجل الاطلاع عن كثب على مواهبهم في ذلك، ولا أخفي عليك لقد قدّم لنا بعضهم أفكاراً لم نظنها يمكن أن تخطر يوما ببال شيطان. ولكن وبعد ما جرى في هذه الزيارة، فقد إلتمست جلالة الملك أن يسمح لي بترتيب أخير معك، قبل اتخاذ قراره بشأن كرسي الإمارة في مدينتكم..

وبينما كاد الدم أن يجف في عروق الضبع الأمير، وجفّ حلقومه، واصل رئيس المستشارين كلامه: وقد تكرم جلالته بالموافقة على أن نعرض عليك كل الخدمات الدونية، التي وعد منافسوك الضباع

بتقديمها لنا حال توليتهم الإمارة، لنرى ما الذي تستطيع أنت أن تقدمه خدمة لإرادة آلهتنا المقدسة..

وبعدها بدأت المفاوضات غير المتكافئة بين الطرفين، اللذين كان أحدهما يستمر بالطلب، والآخر لم يكن أمامه سوى الاستمرار بتقديم التنازلات..

لم يُعرف تفاصيل ما جرى بعد ذلك، ولا مستوى الدونية الذي وصل إليه الضبع الأمير لكي يحافظ على كرسيه ولاية أخرى، غير أن اليوم الأخير من الزيارة الميمونة تم تغطيته إعلامياً بشكل واسع، وظهر الضبع الأمير مبتسما ابتسامة النصر على كل منافسيه الضباع، وقد كان جالساً قرب جلالة الملك الذي أثنى على أميره البطل أيما ثناء.

* * * * *

وقبيل الظهر، طُلب من سكان المدينة جميعاً أن يتجمعوا في ساحة الاحتفالات الكبرى، ليرحبوا بمقدم سمو الأمير من زيارته الظافرة. وسرعان ما اكتظت الساحة بالجموع المحتفلة، وهي ترقص وتغني، وتصرخ وتنبح وتعوي.. وقد بلغ بها الهيام أقصاه عندما أطل الضبع الأمير بوجهه الكالح على تلك الجموع، والابتسامة تملأ ما بين أذنيه، فهتف الكل من أبعد نقطة في الأعماق المظلمة لقلوبهم السوداء بحياة الأمير، وبعظيم انتصاراته، وكيف أن السماء لأجل سواد عينيه فقط..

تمطر، وكيف أن الأشجار بحبه.. تثمر، حتى بلغ الطيش بهم غاية منتهاه، وبلغت نشوة الضبع الأمير ذروتها، وبما كاد أن ينسيه للحظات كل ما جرى عليه في الأسبوع المنصرم.

تنحنحَ الضبع الأمير.. وهمهَمَ بضع مرات، قبل أن تخشع أصوات الجماهير استعدادا لسماع كلام أميرها المفدّى، ثم قال بأعلى صوته: (أنا ربكم الأعلى)..

فهاجت قطعان الجماهير كأشد ما يكون الهيجان فرحاً بالشرف العظيم الذي أسبغه الضبع الأمير عليهم.. بأن قبِلهم عبيداً له.. فعمّت الأفراح بقية اليوم، وكانت ليلة أجمل من كل الليالي الملاح، وكان الكل سكارى وما هم بسكارى، إلّا قلة من المساكين لم يستطيعوا أن يفهموا سبباً لكل هذا الفرح والبهجة، في وسط كل المآسي التي جلبها عليهم ذاك الضبع.. فأيقن البقية أن هؤلاء ما هم إلا شرذمة من أناس متخلفين نفسياً وذهنياً، فتركوهم احتقارا لشأنهم، ليموتوا بحسرتهم.. حسرة العاقل في زمن الجهال.

المقامــة الثالثـــة:
فـي قصــرِ الـضبــعِ الأميـــــر

وفي اليوم التالي، استقبل الضبع الأمير في قصره وفود المهنئين بعودته الظافرة، يتقدمهم اعضاء مجلس قيادة الثعالب، وشيوخ قبائل الأرانب، يتبعهم الأعيان وكبار الموظفين، ونخب الصفوة في بلاد العجائب والغرائب.

وكان أحدهم إذا ما اقترب من حضرة أميره، غلبته دموع الفرح، وأجهش بالبكاء.. ولم تكد ساقاه أن تحملاه وهو يصافح مولاه، ويداه ترتعشان انفعالاً. ولم يكن أحد منهم يتصنع شيئاً من ذلك، إذ إنما التصنع هو للمبتدئ في طريق النفاق، أما علية القوم فقد مردوا على النفاق، وورثوه سافلاً عن سافل.. ومن لم يكن نصيب ميراثه من جده يكفيه نفاقاً فقد باع كل ما يملك ليستكمل ما يحتاج من عدة النفاق، حتى إذا استوى على أشده، ما عاد أحد يستطيع أن يميزه عن الذي كفاه إرثه العائلي مشقة العناء.. لا بل إن بعضا من الذين تولوا كبره منهم شرعوا يحدثون مولاهم عن رؤاهم له في المنام، حيث كان في مقام فاق كل مقام.. وما كانوا يختلقون ذلك، بل كانوا يتحدثون بما رأوا فعلاً في أحلامهم من حديث نفوسهم المظلمة!

* * * * *

ولم يكن شيئاً من ذلك ليثير العجب في بلاد الأعاجيب.. لكن أحدهم ظل مستغرباً من صاحب له، قضى ما يزيد عن نصف قرنٍ من عمره وهو يلعن الظالمين، ويلعن كل من داهنهم أو اقترب منهم، ويلعن من يخيط ملابس الظالمين، ويلعن معه الذي يبيع الخيط له، ويردد دوماً وصية أبيه له بأن لا يصافح أحداً من أقرباء بائع الخيط ذاك، ولو كان من الدرجة العاشرة..

تفاجأ ذلك المستغرب مما تناقله الناس عن صاحبه.. كيف أنه لما دخل، لسبب لم يعرفه أحد، ضمن وفود المهنئين، كيف أنه أصابته نوبة شديدة من النفاق الابداعي حين دخل حضرة من اعتاد أن يلعنه وأمثاله وأشباهه، وأشباه أشباهه، ويلعن معه كل طائر طار يوماً فوق بيت أحد من أقربائه.. فما كادت يده تلامس يد الضبع الأمير الآثمة إلّا وبدأ ذلك الصاحب بالهتاف لأميره: أنت ربنا الأعلى.. أنت وحدك ربنا الأعلى..

رددوا معي جميعاً: النصر لربنا الأعلى.. والخزي لكل من عاداه!

فضج المهنئون بترديد الهتافات بعده، وهو يهتف أمامها راقصاً حتى كاد أن يطير في الهواء من شدة الحماس، لدرجة أن جموع الذين مردوا على النفاق، ومن شدة ما أذهلهم علو كعب الابداع في نفاقه، كادوا أن يستفيقوا على أنفسهم، لا ليتركوا النفاق، ولكن ليدركوا كم أن بحر

النفاق عميق ومظلم، وأنهم جميعا لا يزالون على شاطئه، ولم يروا بعد لآلئ الأعماق التي وجدها صاحبهم!

* * * * *

وبعد أيام، التقى الصاحبان القديمان.. فأجبرت نظرات الاستغراب القافزة من عيني أحدهما الآخرَ، الذي انفجرت فجأة ينابيع نفاقه الآسنة، أجبرته على الكلام مبادراً: أرجو أن لا تكون قد صدقت ما قيل عني في الحفل، فكما تعرف (حسادي كثيرون)، وكذلك حساد مولانا الأمير.. فمثلي لا يمكن أن ينافق أو يداهن أحداً، حتى لو كان الأمير نفسه، وأنت لاشك تعرف وصية والدي لي بهذا الشأن، فكل ما هنالك أني رأيت في مولانا الأمير خصال خير قد لا يدركها الآخرون، فأردت أن أستغلها فيه، ليزداد خيره على البلاد والعباد..

وأردف قائلاً: وأنا بالتأكيد لم أطلب شيئاً لنفسي، حتى القصر الفخم الذي أهداه لي مولانا الأمير ذاك اليوم أنا لست محتاجاً له، لكني لم أرد أن أخجله برفضه.. فالحقيقة أن بعض الناس يظلمون مولانا الأمير حقداً وحسداً، على الرغم من كل صفات الخير التي يحملها، فهو لاشك الوحيد الذي يستحق الإمارة في مدينتنا بكل جدارة، ولولاه لما استقام لنا أمر..!

لم تنفع كل تلك الكلمات في إزالة شيء من استغراب المستغرِب، لكنها جعلته يعي كم كان هو وغيره مخدوعين بصاحبه هذا.. فاستجمع ما استطاع من فلول ذكاء لديه ليجيب عن كل تلك المحاضرة الطويلة بقوله: نعم أنا بالتاكيد أثق بكل ما تقول، وأن الكثيرين يقسون في الحكم على مولانا الأمير!

* * * * *

وبعدما عاد المستغرِب إلى كهفه في تلك الليلة، أدرك ان المشكلة قد لا تكون في صاحبه فقط، لأن أغلب الناس بدؤوا يتصرفون مثل صاحبه، بشكل أو بآخر، وهنا وصل إلى سؤال لابد أن يجد له إجابة شافية، وهذا السؤال هو: (هل الخطأ فيّ أنا أو إن الخطأ في الآخرين؟)..

* * * * *

وبعد سنين.. لم يعد الرجل المستغرِب مستغرباً من شيء، بل كان يمتطي عصا عَدَّها حصاناً له، يقطع بها الطرقات، والصبية يركضون وراءه هازجين ضاحكين.

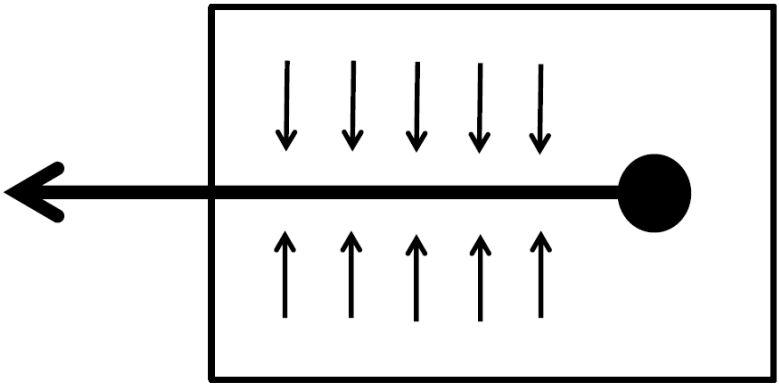

المخطط رقم ١:

الإنسان وهو يطيل الأمل وقد أحاط به الأجل، والأعراض تثب إليه من كل جانب.. (وهذا تصوير قريب مما خطه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،في الحديث الذي أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب، ولا يتطابق معه تماماً).

المقامــة الرابعــة:
مــوطـنُ الـكــذب

في موطنِ الكذبِ الكلُّ يَكذب، وكل كاذبٍ يفخرُ أنه يَكذب، وكل مكذوبٍ عليه يعلم أنه عليه يُكذَب.. والكاذبون موقنون بأن كل المكذوب عليهم يدركون تماماً، أنه عليهم يُكذَب.. والمكذوب عليهم يفخرون أنه لا يستطيع أن يقودهم إلّا من لأجل عيونهم يَكذب.. ولكن أحداً لا يجرؤ أن يهمس بأُذن الآخر: "أنت تَكذب"!

لأنه سيُتّهم في وطنيته.. ويصدر حكمَ الإعدام عليه العملاءُ.. أو لعله سيتضح أن جدته الخامسة والعشرين كانت مومساً، فترجمه البغايا تكفيراً لزلة تلك الجدة!

فلكي تكون مواطنا في موطن الكذب هذا، عليك أن تَكذب، وعليك أيضا أن تفخر كل يومٍ بأنه عليك يُكذَب.. والأطفال فيه لا يرضعون إلا الكذب، والعجائزُ لا يروينَ إلا الكذب، وما بين هذا وذاك، ليس ثمة شيء سوى الكذب.

المقامــة الخامســة:
مَدرســـةُ الحَمـــير

دخل الحمارُ الأستاذُ إلى صف الحمير ليلقي درسه.. نهق مراقبُ الصف مُرحّباً بالحمار الأستاذ، لكن نهيقه كان نشازاً، حتى بمقاييس الحمير. وبعد أن هزّ الأستاذ أذنيه اللتين زادهما الزمن طولاً فوق طول، سرعان ما سرَح فكره بعيداً في دهرٍ تولى لا يعودُ، يوم كان طالباً في مدرسة حمير أيام زمان، يومَ كانت حمارةٌ جميلةٌ (يسميها الحميرُ اللغويون أتاناً) تلقي نشيد الصباح، فتتمايل الحمير كلها أساتذةً وتلاميذ مع اللحن الشجي، ملوحةً بآذانها الطويلة في الهواء..

غادر الأستاذُ سماءَ الأحلام عائداً إلى أرض واقع الحمير المرير على صوت همس وضحك بعض الحمير الصغار المشاغبين، الذين لم يمنعهم غباؤهم بين أقرانهم من الحمير، لم يمنعهم من التفكه على الشرود المستمر لذهن أستاذهم الحمار..

(حسناً فلنبدأ الدرس).. تمتم الحمار الأستاذ مرغماً، وهو يلعن مع كل نفَس زمنَ الحمير الجديد. وبصبر وجلَد عجيبين تمكن الأستاذ من إكمال درسه الذي سبق أن تعلمه من أستاذه هو في الزمن السحيق. ولقد كان الوصول إلى نهاية الدرس، في كل درس، أمرا لا يكاد أن يصدقه الحمار الأستاذ، ولكنه نجح في هذا لحد الآن على الأقل..

غير ان الحمار الأستاذ ولأنه على الرغم من أستاذيته لازال حماراً، لم يستطع الاقلاع عن عادته السيئة في سؤال طلبته الحمير: (هل فهمتم الدرس؟).. فيخيم على وجوههم جميعاً صمتُ الحمير..

(هل هناك أحدٌ منكم لم يفهم الدرس؟).. ولايزال صمت الحمير مرتسماً على وجوه الحمير، التي شردت في اللامكان أذهانها، وتجمدت الدماء في شفاهها الغليظة.. (حقاً أنني حمار!) تمتم الأستاذ بصوت غير مفهوم.. (لو لم أكن حماراً لتركتُ مثل هكذا سؤال).

* * * * *

وذات مساءٍ، عاد الحمار الأستاذ إلى منزله، بعد أن قضى يوم عمل عادي للحمير، مثل الذي اعتاده منذ سنين. استقبله ابنه الحمار الصغير مبتسماً: مرحباً يا أبي الحمار..

ولأول مرة فكر الحمار الأب بمسألة عجيبة سيطرت على عقله: (ما الذي غيّر عالم الحمير؟ لماذا لم ينعم ابنه الحمار بزمن الحمير الجميل الذي عاشه هو؟ هل حقاً أن عصر الحمير الذهبي قد انقضى إلى غير رجعة؟ وإذا كان زمن الحمير قد ولّى، فيا ترى ما هو الزمن الجديد؟ زمن مَن يكون؟)..

بيأس حاول الحمار الأستاذ ابعاد هذه الأفكار عن ذهنه، لكنها استمرت في قهره. وساعة بعد ساعة، والليل يأكل نفسه، كما هو الحمار الأستاذ يلتهم أجزاءً من فكره بسرعة دون مضغ، لمع عن بعد أخيراً ضوءٌ على استحياء: (نعم، إنه زمن الثعالب!).. فصاح الحمار الأستاذ بأعلى صوته: وجدتها.. وجدتها.. إنه زمن الثعالب!

استيقظت الزوجة الحمارة مذهولةً، في زمن تذهل فيه حتى الحمير، على صراخ الحمار زوجها، وسرعان ما ابتلعت ذهولها، فهي حمارة بنت حمار أصيل، وقالت: ما الذي وجدته يا أسد؟!

ولأن الحمار الأستاذ هو أيضا لم يزل حماراً أصيلاً، صمّ أذنيه عن سماع (يا أسد!)، وألجم دماغه عن الانشغال بتهكم الحمارة زوجته، كما درّب نفسه على ذلك من زمن ليس بالقصير. ثم إنه فرحٌ بالإكتشاف المذهل الذي توصل إليه، وما يمكن أن ينبني عليه من فتوحات، فقال للحمارة زوجته بكل جدية: لقد انقضى زمن الحمير، وجاء زمن الثعالب، لذلك فما على حمارٍ مثلي ليعيش بهناء في هذا الزمن إلّا أن يحول نفسه إلى ثعلب.. نعم هكذا الأمر بكل بساطة!

وبجهد ليس بالقليل، استجمعت الحمارة الزوجة كل ذكاء الحمير ودهائها الذي ورثته عن جدتها الكبرى، لترد على الحمار زوجها، وتستمتع بتحطيم كل أمل له، كما كان ديدنها دوماً في حياتهما

الزوجية، وقالت له: ألا تعلم يا زوجي الحمار العزيز أن هناك فرقاً جوهرياً لا يمكن تجاوزه بين الثعالب والحمير؟

أجاب مستغرباً: وما هو؟!

قالت: الحجم..

همهَمَ: الحجم!

ردّت بسرعة: نعم، الحمير البالغة أكبر حجماً بكثير من الثعالب.. ومهما غيرتَ في شكلك، أو عدّلتَ في سلوكك، أو زوّرتَ في هويتك ونسبك، أو تخليتَ عن أخلاق الحمير، التي ورثتها عن آبائك وأجدادك، كابراً عن كابر، لن تستطيع حتى أن تتشبه بالثعالب.. ومهما فعلتَ، فكل من سينظر إليك سيعلم من النظرة الأولى أنك حمار بن حمار!..

وقعتْ هذه الجُمل المترادفة وقعَ الصاعقة عليه.. ودون أن تعطيه فرصةً لالتقاط أنفاس الحمير، استدركتْ: قد تكون هناك فرصةٌ ولو ضعيفة لابننا الحمار الصغير أن يتحول إلى ثعلب، أو على الأقل لأن يتشبه بالثعالب، لكن مخلوقاً مثلك قضى أغلب سنين عمره حماراً لا فرصة أمامه، لأنه حتماً سيبقى حماراً!..

وبعد لحظات ثقيلات، كاد أن يتوقف فيها الزمن، علمَ الحمار الزوج أنه قد أسقط في يده هذه المرة أيضاً.. وأنه قد خسر الجولة المائة بعد الألف، في نقاش الحمير المستمر، مع الحمارة زوجته.. وأحس بأن الظلمة أحس بأن الظلمة تكاد أن تطبق على صدره حتى تكسر أضلاعه.. ومع ذلك، أراد أن يحفظ شيئاً من ماء وجه الحمير، فقال منكسراً لزوجته: هل تعتقدين حقاً أن لابننا الحمار الصغير أملاً في زمن الثعالب هذا؟

أجابت الحمارة الزوجة الموقنة بنصرها المبين: لنترك مناقشة هذا الأمر إلى وقت لاحق، فلا تنسَ أن عليك أن تذهب إلى عملك في مدرسة الحمير غداً في الصباح الباكر..

* * * * *

وفي صباح اليوم التالي، ذهب الحمار الأستاذ كعادته إلى مدرسة الحمير، ليستمر في الدوران حول الرحى، التي لم تزل قطب دائرة كل حمار، على مر العصور..

المقامة السادسة:
مُعلّقَةُ الذي لا يَدري

أنا شاعرٌ.. أكتب شِعري..
بالرياضياتِ ورموز الجبرِ..
وأملأُ الأوراق صخباً وعويلاً،
وأتحدى كل الآخرين أن يجدوا نغمة نشازٍ في وتَري..
وليقم ذاك الذي لا يدري..
ليقطعني أرباً أربا، ويشوي كل دميعاتي على النارِ، وعلى الجمرِ..
ولكن، هل يدري ذاك الذي لا يدري، لمَ باع الملكُ مملكته؟
ولماذا تركَ كل حوريات القصرِ؟
ليعبث بهنّ مخنثٌ، لا أب له ولا أم،
وما أثقلَ يوما ميزاناً بذرة مثقالٍ من الخيرِ..
وما رفع يوماً خنجره، إلّا ليغرزه في ظهري..

* * * * *

أنا عرّافٌ، أحملُ تحت معطفي كوّةً ورثتها عن جدّي..
أنظرُ من خلالها، فأرى جانباً من الغيبِ..
فأنطلقُ بكل براءةٍ، أخبر قومي بما عندي..
فأسلك كل دروب الفكرْ..

وأعصرُ كل قطرات العمرْ..
لأصوغ منها منهاجاً، يقصمُ ظَهر المتحدّي..
وأبذله بلا ثمنٍ لأمةٍ، تعودتْ تبذير دمائها والأموال،
في كل طريقٍ لا يجدي..
فينتفض ذاك اللايدري، ليذكرني بخطب المتفيقهينْ..
وتصريحاتِ مراهقي السياسة المخضرمينْ..
ولعناتِ فتوى جلّادٍ، يوم لمزني بالمرتدِّ..
فأرتدُّ منكفئاً على نفسي، في قوقعتي، أشدو وحدي..
بذكرى يوم شتويٍّ، تبسمتْ شمسهُ، رغم الغيومْ..
وجَدّي، الذي نالت من جبينه السنونْ..
وأنا معهُ، وكل شيءٍ حولنا في سكونْ..
فيُدخلني معه في ردائه الصوفي، ليذيقني شيئاً من طعم السوادِ،
ثم ليفتحَ لي كوّةَ السِحر والشجونْ..
فيذهلني بهاء المنظرِ، وصوتٌ من خارج الزمن يُرجّع في وقارْ:
(دربْ بغَـــدادْ انلِـــزَمْ شِـدّوا يا خَيّالَةْ
يا أهل الچِفافي الخُضُرْ والعُگُلْ ميّالَةْ)..
فيأسرني جمال تلك الكوفيّات الخُضر،
وهيبةُ هاتيك "العُقُل" المائلات،
إلى الحقّ، من غير ظنونْ..

فأتفرس في وجوههم، أريد نقشها في قلبي نقشا..
لكن جدّي يخرجني من ردائه ويقولُ:
كفاك ما رأيتَ اليوم يا فلذة كبدي..
فقدَرُك أن تحمل هذا الهم، من اليوم إلى اللحدِ..
* * * * *

أنا قدّيسٌ.. تتلألأُ فوق هامتي، ألسنةٌ من لهبْ..
حتى عندما أكون سكراناً، حد الثمالةْ..
بخمر جرحٍ، عتّقتهُ كل سنوات العمالةْ..
أنا غريبٌ في عصرٍ فرَّ من كل الأنبياءْ..
وتركني فيه وحيداً، كل الأولياءْ..
لأبقى مخموراً، أرَددُ أنشودة الفتى المضاعْ..
في زمنٍ، خلَتْ فيه الأرضُ، من أبي حنيفةْ..
في أرضٍ، خلى زمانها، من عشاق الجواهر والأصالةْ..
ولم يعد فيها سوى، تجار بصَلٍ، وسماسرة نذالةْ..
ويصفعني عدوّي، الذي لا يدري، وينادينيِ: يا مسكينْ..
لا تغالي بنفسك، فإنما أنت رجلٌ من طينْ..
وليتَهُ يعرف شيئاً، عن أصناف الطينْ..
فلا يساويني بمن باع دينَهُ لِغَويٍّ،
وكان فيه من الزاهدينْ..

ولا بجبانٍ هاب الحقَّ، وجارى سبيل المفسدينْ..
لا لشيءٍ سوى لأجل حفنةٍ من طينْ!
* * * * *

نعم.. أنا قدّيس هذا الزمانْ..
وقطب رحى دوران المكانْ..
لأني ما قتلتُ بريئاً، ولا رضيتُ يوماً قتلَ الأبرياءْ..
وما هالني كيدُ عدوٍّ، ولكنْ..
أفزعني رفاقٌ كابروا، وأخوةٌ في السذاجة سادرين..

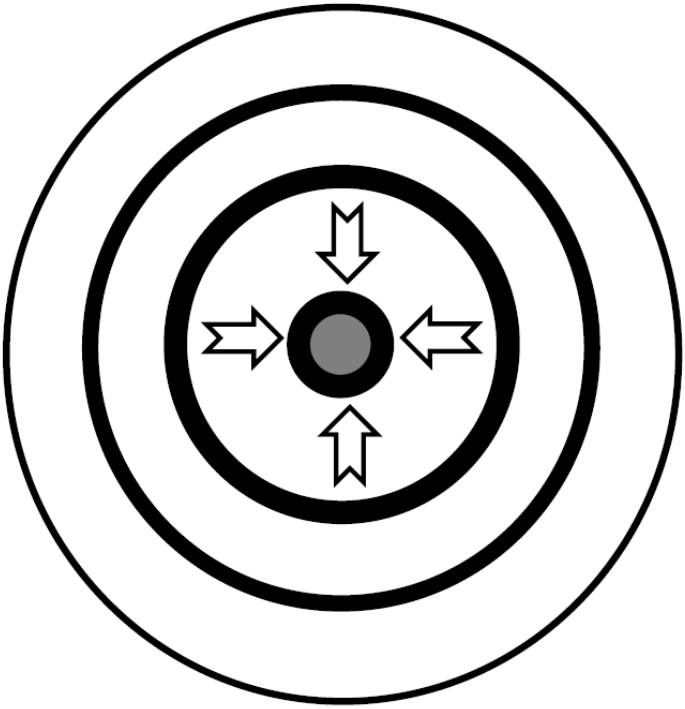

المخطط رقم ٢:

وكذلك تضيق عليهم الأرض بما رحبت.. فمن كان مقبلاً على الله تعالى، تمحّصَ إيمانه، وزكتْ نفسه، وجاءته المنحة في ثوب المحنة.

المقامة السابعة:
مُعلّقَةُ الذي يَدري

أنا شاعرٌ؟!

أنا عرّافٌ؟!

أنا قدّيسٌ؟!

لا..

أنا نفسي ذاك اللايدري..

فأنا منذ قديم العصرِ..

تعوّدتُ ذبحَ النبيينْ..

واغتصابَ حقوق الصالحينْ..

أنا طربي.. عويلُ الثكالى..

ونشوتي.. دموعُ اليتامى..

وسعادتي.. آلامُ البائسينْ..

أنا هو ذاك الغويُّ المبينْ..

أبيعُ لأهل الأهواءِ، مفاتيحَ الجحيمْ..

أنا مكرٌ.. بلا عقلٍ..

أنا مأساةٌ.. بلا قلبٍ..

أنا ألَمٌ.. بلا ورَمٍ..

أنا خاصمتُ نفسي، من سنينْ..

أنا سهدٌ.. بلا عشقٍ..
أنا ليلٌ.. بلا فجرٍ..
أنا مرضٌ عضالٌ دفينْ..
في قعر الشِعرِ..
وعميقِ أجراسِ البحرِ..
ومواساتي الكبرى في أمري..
أن كل مَن حولي، لا يدري..

* * * * *

أنا بحّارٌ..
هجرَ البحرُ مراكبي..
وصحرائي عافتها الرمالْ..
ونسائي كلهنّ تركنني، وجرينَ بعيداً في السرابْ..
وجرحي منذ قرونٍ، ينزفُ عطرا..
بين برك الدم الفاسدِ، في أرضٍ يبابْ..
وأنا لم أزل أطرقُ، على ذلك البابْ..
ولي في كل ليلةٍ، أمنيةٌ وحيدةْ..
أنْ أرى وجهَ النبيِّ، ولو رؤيا منامْ..
فأُرَدُّ.. وأُرَدُّ..
ولا أرى سوى، أضغاث أحلامْ..

عافتها جحافلُ النائمين، وزهدت بها جنودُ الضبابْ..
فأعودُ أغوص في ذاتي، أبحثُ من جديدٍ عن ذاتي..
وعن إلهٍ ضيعتُه، منذ أيام الشبابْ..
على ساحل الفكر المخادع، عند جُزر الغرامْ..
عندما همتُ لا بنهدٍ، بل بمجدٍ، لأمة باعت مجدها القديمْ..
لتشتري به ثوباً براقاً، تلبسهُ صبيحةَ العيدْ..
لتكتشفَ عند المساء، أنه لم يبقَ لها شيءٌ تساومُ عليه،
إلّا مستقبل العبيدْ..
فتخرجُ ليلاً، عن بكرة أبيها..
سياسيّوها، ورجالُ دينها..
مثقفوها، والأميّونْ..
أغنياؤها، والفقراءْ..
يتقدمهم المسلحون، المجهولونَ والمعلومونْ..
ليثقبوا أحشاء السماء، برصاصهم المستورد..
وليبقروا بطون الليالي، بكل أهازيج السجونْ..
محتفلين بيوم نصرهم المجيدْ..
واستعادةِ مجدهم التليدْ..
وأنا وحدي كالطريدْ..
أقفُ والذهولُ يقتلني..

أيُعقل أن كل المصفقين أغبياءٌ، وأنا العبقري الوحيدْ؟!
أَم تراني جُنّ جنوني، واستمرأتُ النواحَ والتنهيدْ؟!
فأعودُ لأسأل نفسي..
أأنا شيطانٌ أم قدّيسْ؟
أأنا صدّيقٌ أم إبليسْ؟
أأنا حقاً إنسانٌ، أم أنا شيءٌ آخر، لا تحدّه كل هذي المقاييسْ؟
هل بُعثتُ في غير زمني؟
أم أني قد وصلتُ خطأً، إلى كوكبٍ آخر؟
لعلي أنا الخطيئة الكبرى لهذا الكونْ!
لعل كل شيءٍ بغير وجودي سيكون بخير حالٍ، وأفضَل لونْ!
آهٍ لو كنتُ أدري..
وآهٍ لو استطعتُ أن أعيشَ كغيري..
أحيى وأموتُ، ولا أدري..

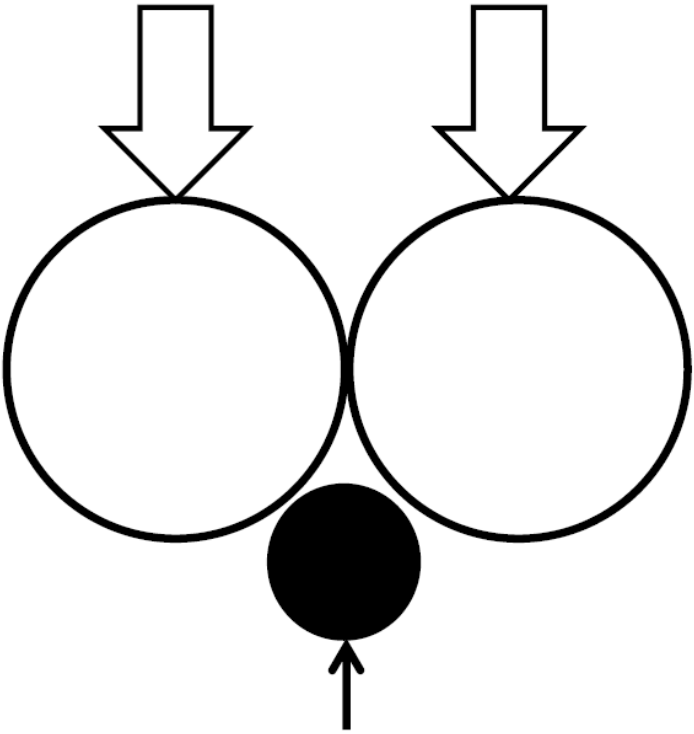

المخطط رقم ٣:

لن يغلب عسرٌ يسرين في أمة محمد صلى الله عليه وسلم نبيها وقائدها.

المقامــة الثامنــة:
مَـرداس وحكـايـتُه بيـنَ النـاس

جاء زبانية الأمير إلى بيت مرداس، الذي كان مسافراً بأمر ديواني لينجز قضية بالغة السرية، وذات أهمية قصوى للإمارة، لم يُكشف للناس عنها.. قام الزبانية بنهب زوجة مرداس، لتكون جارية في جيش جواري الأمير، وقتلوا جميع أبنائه، وسرقوا ما غلى ثمنه من محتويات منزله، ثم هدموا المنزل وما حوله من سور، وأحرقوا كل شيء.. وقبل أن يغادروا مكان الجريمة، وضعوا لافتة كُتب عليها: (عاش مولانا الأمير)!

ولما أنجز مرداس مهمته، وعاد، وصل إلى بلدته ليلاً، فتفاجأ بما حلّ في منزله من دمار، ورأى مذهولاً بقايا جثث أولاده المتفحمة ملقاة على الأرض، لم يستطع أحد الاقتراب منها لدفنها، وأخبره الناس بما جرى في أثناء غيابه.. ثم قضى مرداس ما تبقى من الليل، وساعات الصباح الأولى من اليوم التالي، ينظر بلا حراك إلى اللافتة التي تركها زبانية الأمير، وهو يعيد قراءتها مرة بعد مرة..

وفي الصباح، تحرك مرداس متوجها إلى قصر الأمير، وبعد تفتيش دقيق، سُمح له بالدخول على الأمير.. فلما رأى مرداس وجه الأمير، طفق مرداس يهتف بحياة الأمير وعدله ورحمته، وفضله السابق عليه

وعلى الناس.. ولم ينسَ مرداس أن يقدم آيات الشكر والعرفان لمولاه الأمير، لتكرمه عليه باختيار زوجته لتكون من جواري الأمير المفدّى، ولقتله بقية أفراد عائلته، وإحراق وتدمير منزله.. فكل ذلك شرف عظيم لم يكن مرداس لينالاه لولا فضل مولاه الأمير عليه!

ثم عرض مرداس على الأمير ما أنجزه في سفرته، وأدائه لمهمته الموكلة إليه على أتم وجه. واختتم مرداس المقابلة بأن أقسم للأمير، بأغلظ الأيمان، أن لاهَمّ له في هذه الحياة سوى رضا مولاه الأمير..

وعند الظهيرة، عاد مرداس ليلقي نظرة أخيرة على بيته المهدم، وعائلته المحروقة، قبل الذهاب إلى قصره الجديد الذي وهبه الأمير إياه.. فوجد شاة لأحد جيرانه، قد استغلت حر الظهيرة فتفلتت، وعبرت سور البيت المهدم، وبدأت تأكل من عشب غير محترق في احدى زوايا السور.. ولأن مرداس رجل لا يصبر على الضيم، فقد ثارت ثائرته، فقتلَ الشاة، وقتلَ جاره معها!

ولما حضر الشُرَطُ لإلقاء القبض عليه لفعلته هذه، أخرج مرداس لهم مرسوم أميري مكتوب فيه: (مرداس فوق القانون، وليس كباقي الناس، ولا يستطيع أحد مساءلته إلّا بأمر ديواني صادر من حضرتنا)..

المقامــة التاسـعـة:
الصـلـواتُ الوثـنـيـّـــة[٢]

(سبحان السيد المدير، والحمد لمعالي الوزير، ولا أمير إلّا سمو الأمير، وجلالة الملك أكبر)..

(سبحان السيد المدير، والحمد لمعالي الوزير، ولا أمير إلّا سمو الأمير، وجلالة الملك أكبر)..

(سبحان السيد المدير، والحمد لمعالي الوزير، ولا أمير إلّا سمو الأمير، وجلالة الملك أكبر)..

هكذا يبدأ الوثني صلاته، كل يومٍ، داخل المعبد، وخارجه أيضاً.. وهو يصوم كل يومٍ، ليدعو بهن دعاءه المستجاب عند افطاره.. وفي كل ليلة، وعندما ينام الناس، يقوم هو ليذرف الدموع، ويتضرع بالثناء على السيد المدير، ومعالي الوزير، وسمو الأمير، وجلالة الملك.. وهو بالتأكيد لا ينسى أن يلمّح أو حتى يصرّح لأصحابه ومعارفه، كم هو يعاني من تعب الصيام والقيام، ولكن ذلك كله يهون لأجل آلهته!

لم يعِ هو من صلاته طوال خمسين عاماً، سوى هذه الكلمات.. لم يفهم مطلقاً لماذا هو يقول في كل حركة: (الله أكبر).. هل حقاً أنه

[٢] أولا: ناقل الكفر ليس بكافر، وثانيا: لا نكفر أحداً من أهل القبلة.

يعتقد أن الله أكبر؟ يا ترى الله عنده أكبر ممن؟ من السيد المدير؟ من معالي الوزير؟ من سمو الأمير؟ من جلالة الملك؟

كان الوثني يسارع إلى طرد أمثال هذه "الوساوس" كلما لاح شيء منها في عقله المنكوس، ولو من بعيد.. فهو لا يدانيه شخص في الإخلاص لآلهته، وقد عاهد نفسه منذ زمن بعيد، على أن لا يشرك بها أحداً.. وهو يرى الكون كله في خدمة آلهته هو، فيستنتج: (إذاً هم حقاً آلهة)!..

(أليس السيد المدير هو من يقرر من يحصل على فلسين زائدين علاوة على المرتَّب الشهري؟)..

(أليس معالي الوزير يستطيع أن يعزل الموظف عن وظيفته ويقطع المرتَّب عنه؟)..

(أليس سمو الأمير هو من يهب المناصب العليا لمن شاء في المدينة؟)..

(أليس جلالة الملك هو من يملك أن يتصرف في كل شيء في عالم الوثني؟)..!

إذاً لا مشكلة.. فهذه معادلات بسيطة، أدركها الوثني بعبقريته. ولسبب ما، بدأ كثيرون يدركون سر هذه المعادلات، التي أصبحت عندهم حقيقة، فصاروا يدخلون في الوثنية أفواجاً..

* * * * *

أيها البشر الذين فقدتم إنسانيتكم..

يا أيها الذين بعتم دينكم بدراهم معدودة، وكنتم فيه من الزاهدين..

أهلاً بكم في العصر الوثني الجديد.

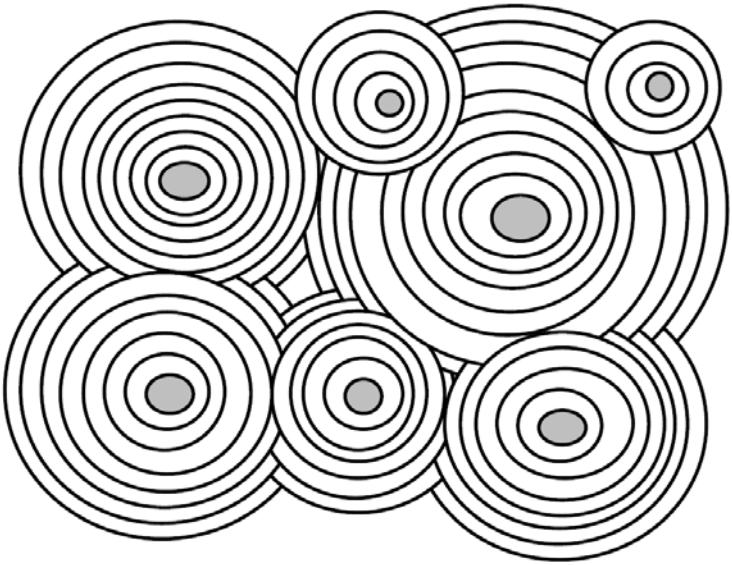

المخطط رقم ٤:

فسادُ معتقَد الشرك.. فلا يستقيم أمر الكون مطلقاً إلا بالعبودية لله الأحد الصمد، تنزّهَ عن الشريك، وعن الوالد والولد.

المقامــة العاشرة:
مَـدرَســـةُ الرجـُـولــة

توصلت مراكز الحفاظ على الحياة البريّة في احدى البلاد إلى استنتاج خطير مفاده أن هناك جنساً من المخلوقات مهددٌ بالانقراض، وهو جنس الرجال!

تدارست الجهات العليا هناك الموضوع بشكل عاجل، وقرروا اتخاذ خطوة ثورية جريئة للحفاظ على هذا الجنس، من خلال إنشاء مفاقس اصطناعية لإعادة تكثيره، فأسسوا ما أسموه "مدرسة الرجولة".. وتم تعيين مجلس أعلى لإدارتها، من خيرة الخبراء المخنثين، واختير كبشٌ مخصيٌ نتن الرائحة لرئاسة ذلك المجلس..

وقد اختلفت الروايات في سبب نتانة هذا الكبش المخصي.. فقائلٌ قال: إن هذه النتانة جِبلّة طُبع عليها، لم تفلح في ازالتها أقوى المنظفات، ولا أكثر العطور تركيزاً.. وآخر قال: بل إن سببها يعود إلى الطريقة التي تم فيها استئصال خصيتيه.. وهناك من قال غير ذلك.. وعلى كل حال، مهما اختلف السبب، فالمهم في الموضوع هو أن رائحة ذلك المخصي النتنة كانت كافية لجعل مجلس المخنثين بأجمعه ينقاد خلفه حيثما اتجهَ، ولا يعارضه في شيءٍ أبداً..

* * * * *

وبعد عشرين عاماً من تأسيس تلك المدرسة، لاحظت مراكز الحفاظ على الحياة البريّة ذاتها أن عدد الرجال في تلك البلاد لم يزدد مطلقاً، على الرغم من مضي كل هذه السنين على تأسيس المدرسة، وعلى الرغم من قيام المدرسة بتخريج الألوف من الطلبة!.. فطلبت الجهات العليا من مجلس الإدارة ورئيسه تقديم تفسيرٍ لذلك..

عقد الكبش المخصي ومجلس المخنثين اجتماعات عديدة، واستعانوا بكل التقانات الحديثة.. وبعد ساعات طويلة من النقاشات العقيمة، وأياماً متواصلة من التطبيل والتزمير، توصلوا إلى السبب الذي إن عُرف بطلَ العجب.. فأسرعوا بإرسال تقرير غاية في السرية إلى رؤسائهم، عبّروا في مقدمته عن شكرهم العميق، وامتنانهم الكبير لأولئك الرؤساء، الذين لولا بركاتهم لما استطاع مجلس المخنثين بقيادة الكبش المخصي التوصلَ إلى اكتشافه العظيم.. وتلا ذلك تفاصيل كثيرة لعملهم المضني في الموضوع.. ثم جاء أخيراً مقطعا الاستنتاجات والتوصيات، وكانا مختصرين جداً، وكُتب فيهما الآتي:

الاستنتاجات:

إن سبب عدم تخريج مدرسة الرجولة لأي رجلٍ خلال العشرين سنة الماضية من تأسيسها هو مجرد قضاء وقدر.

التوصيات:

تجديد عمل الكبش المخصي ومجلس المخنثين لعشرين سنة أخرى، قابلةً للتجديد.

المقامــة الحادية عشرة:
كــوخُ المَـرمَـر

وقف الأحمق ينظر إلى كوخه المغلف بأحجار المرمر متعجباً ومنبهراً بجمال ذلك الكوخ.. حتى إذا جاشت مشاعر الإعجاب في صدره، هتف بأعلى صوته: إن صديقي فلان هو أعظم صديق، بل هو أعظم شخص في الدنيا، فهو الذي أنفق على تغليف كوخي القديم بأحجار المرمر الثمين، حتى أصبح تحفة تسر الناظرين..

وواصل هازجاً: إن صديقي هذا ينبغي أن يقود العالم بأسره، لأنه يجلب السعادة لكل من يعرفه دون مقابل، فلم تلد أنثى أحداً مثله، وانظروا إلى بيتي هذا وإلى أحجار المرمر النادر فيه لتعلموا صدق قولي..

قيل له: لكن صديقك هذا هو الذي أفسد ابنك وجعله مدمن مخدرات!

أجاب الأحمق: إن المرمر الذي تم تغليف بيتي به هو من أرقى وأغلى أنواع المرمر في العالم..

قيل له: إن صديقك هو الذي أغوى ابنتك وجعلها تعمل في المراقص الليلية!

فقال: ألم تلاحظوا أن الأثاث في بيتي قد أحضره صديقي من أشهر دور الأثاث العالمية..

قيل له: ألا تعلم أن الذي تسميه صديقك يزني بزوجتك!

أجاب: يبدو أنكم لم تلاحظوا لحد الآن الحديقة الغنّاء التي أحاطت بيتي، والأشجار النادرة فيها، وكل ذلك بفضل صديقي المخلص..

قيل له: مالكَ نحدثك عن فساد أولادك وزوجتك، وأنت تحدثنا عن الأحجار والأشجار؟!

قال الأحمق: ولا تنسوا أيضاً السيارة الفارهة التي اشتراها صديقي لي..

وهكذا استمر الجدل البيزنطي بين الطرفين وقتاً، حتى مر بهم رجلٌ حكيمٌ، فقال لمحاوري الأحمق: ألم تسمعوا بعد الحكمة القديمة عن الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري؟!!!

المقامــة الثانيــة عشــرة:
إنســـانٌ وليــسَ سَـمكـة

مما يؤسف له أن أغلب الناس، وكنتيجة خاطئة للميل الغريزي نحو التأقلم مع المحيط الخارجي، يصنعون لأنفسهم ولعقولهم صناديق مغلقة أو قوالب جامدة، ومع مرور الوقت تتطبّع عقولهم ونفوسهم لقبول هذه القيود التي ارتضوها لأنفسهم في عملية لاشعورية عميقة.. وبعد ذلك، تصبح هذه القيود جزءاً منهم لا يستطيعون حتى أن يتخيلوا أنه يمكن لهم أن يعيشوا بدونها..

وعلى الرغم من أنهم بهذا يعطّلون الجزء الأكبر من عقولهم، ويتناسون تماما صرخات قلوبهم، فهم لا يكادون يشعرون بذلك، تماما مثل السمكة في الماء، فهي لا تكاد ترى الماء لأنها ببساطة لا يمكنها تخيل عالمها بدونه.. لكن الفرق الواضح هنا هو أن السمكة لاخيار لها في الموضوع أصلا، بينما أغلب الناس يرضون أن يستبدلوا عقول الاسماك بعقولهم!..

وهذه ظاهرة تحدث لكل فرد ضيّق الفكر يتمحور حول ذاته، ولكل مجموعة بشرية أو مجتمع يميل للإنغلاق على نفسه.. وانظر مثلاً إلى المتحزبين سياسياً، أو المتعصبين فكرياً، أو المتطرفين دينياً، تجدهم أمثلة

واضحة على ذلك.. فهم يعتقدون أنهم هم الصواب بعينه وأن كل من خالفهم فهو خاطئ أو متخلف أو زنديق..

فأطلق لعقلك وقلبك العنان..

وحطم القيود..

وتجاوز كل ما لم يأذن به خالقك ومولاك من حدود.

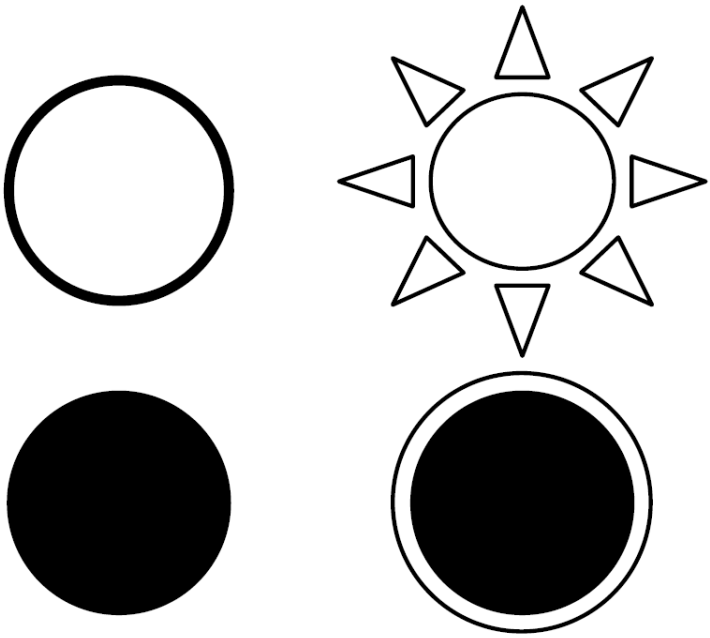

المخطط رقم ٥:

المؤمن يقرأ القرآن فيزداد نوراً على نور، أما المنافق فظلمته تغلب عليه، لأن سواد قلبه المنكوس يحجب عنه أنوار القرآن، وإن تلبسته منها مظاهر سريعة الزوال.

المقامــة الثالثــة عشــرة:
الـحـقيـقــةُ والـوَهــم

إن التمييز بين الحقيقة والوهم هو أمر قد يكون في كثير من الأحيان أصعب مما يبدو للوهلة الأولى.. ولعل أحد أهم أسباب ذلك هو الخلط بين مفهومي الحقيقة والمألوف، إذ إن أغلب الناس يعتقدون أن الحقيقة هي الشيء الذي ألفوه أو اعتادوا على تقبل العيش معه.. وهذا خطأ جسيم، فالإنسان يمكن أن يألف كثيراً من الأوهام مع مرور الوقت..

ومما قد يزيد الامور تعقيداً هو أن الحقيقة (أي بمقاييس العقل البشري) قد تكون أحيانا نسبية أكثر مما هي مطلقة.. وقد يكون النظر إلى الأشياء من زوايا متعددة يعطي صوراً مختلفة جداً للناظرين، بحسب زاوية نظر كل منهم، وبحسب اهتماماته وافتراضاته وطريقة تركيزه..

وهنا علينا أن نفهم كثيراً من الاختلاف على أنه تنوع، وأن هذا التنوع هو من ضرورات استمرار الحياة وتطور الحضارة.. لذلك لا ينبغي لنا أن نصب جلّ اهتمامنا بمحاولة إلغاء هذا التنوع، بل المهم هو أن نفهم أهمية التنوع، ونتعلم كيفية الاستفادة منه..

المقامة الرابعة عشرة:
الحُكماءُ الثلاثَة

اجتمع ثلاثة حكماء في مجلس ملك صالح.. فطلب الملك الصالح من كل منهم أن يسدي له نصيحة تعينه على أداء الأمانة الملقاة في عنقه، وتدبير أمر مملكته، وإصلاح شأن رعيته..

فقال له الحكيم الأول: أيها الملك، عندما تشعر في داخلك أنك الأقل شأنا بين كل الذين من حولك، وأنهم كلهم أصحاب فضل عليك -من بعد فضل الله تعالى-، عندئذ تحبهم فعلاً، وحينها تبدأ خطاك في معرفة حقيقة الحب وسرّ هذا الوجود..

وقال الحكيم الثاني: يا مولاي، عندما يمتزج عنفوان الماء مع قسوة الصحراء، فإن أحدا لا يستطيع أن يَحكم هذا التفاعل، لأنه تفاعل متسلسل، مستمر بعمق الزمن، ومتصاعد كأنفاس الملهوف، ومتعاظم كزخم الصخرة العظيمة المنحدرة من شمم، لتسحق كل قزم يقف أمامها، بعد أن ملت طول الانتظار.. فانظر سنة الله في هذا الكون، واعتبر منها..

وقال الثالث: اسمع مني يا مولاي ثلاثة أمور، ثم استنبط منها ما شئت: أولها- أخرج عقلك من الصندوق ولاتقيده بقيود مصطنعة لا نفع فيها، وثانيها- إياك أن تخادع نفسك لأنها أيضاً سوف تخدعك، وثالثها- إن بلوغ المعالي هو مسألة ذوق وأدب قبل أي شيء آخر، فلا تنسَ ذلك..

قال الملك الصالح: لا حرَمَ الله تعالى عبدَه من ذوقِ حكمةٍ..

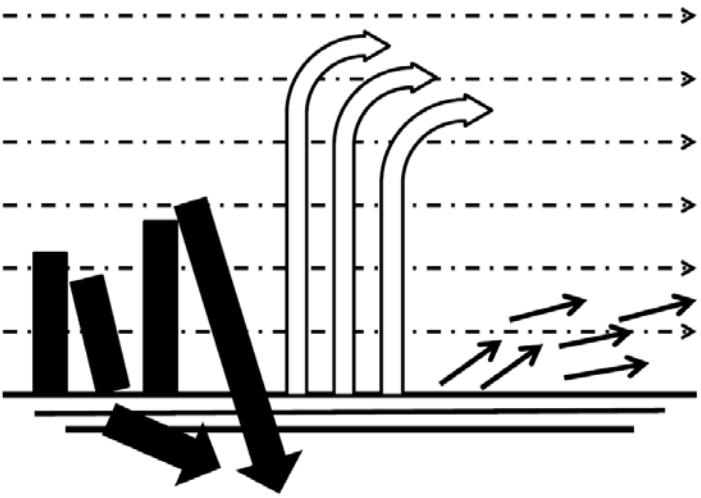

المخطط رقم ٦:

إذا هاجت رياح الفتن، انحنى المؤمن، لا تذلّلاً للسوى، ولكن خضوعاً أمام قهر مولاه، ويبقى قلبه شامخاً بالإيمان واليقين، فلا ينكسر توكّلُه، ولا يُقتلع من جذره السلفي العميق.. وليس ذاك إلا للمؤمن.

المقامــة الخامســة عشــرة:
الأُنــمــوذجُ الحَضــاريّ

لو تجنبنا للحظات قليلة الهتاف الصاخب والشعارات الرنانة، فإننا سننتبه فعلاً إلى أن الناس عموماً، بكل ما يحملوه من طيبة و بساطة، هم بحاجة إلى أنموذجٍ يقودهم في درب المدنية وسلوك الحضارة.. وبالتأكيد ليس المطلوب أن نستقدم شخصاً من كوكب آخر ليكون هذا الأنموذج، ولكن لماذا لا يسعى كل واحد منا لتأهيل نفسه ليكون مثلاً صادقاً لهذا الأنموذج؟

إن بناء الحضارة يحتاج إلى تخطيط، وإلى سلوك مناسب، وجهدٍ دؤوب متواصل، ووقتٍ طويل، وتناغمٍ بين الاجيال.. وكل هذا لا تطيقه عقلية البدوي ولا نفسيته، لأنه نشأ وعقله محشو منذ الصغر ببطولات الغزوات الموهومة بين القبائل، وخرافات الزمن الغابر، على الرغم من أصالة معدنه وكثرة محاسنه..

ولست أعرف أنموذجاً تغيّر فيه بدو الصحراء إلى بناة حضارة حقيقيين، في زمن يُعدّ قصيراً جداً نسبياً في أعمار الدول والشعوب، سوى النموذج الحضاري لصدر الإسلام..

والاستنتاج هنا هو أننا بحاجة إلى تغيير جذري شامل يبدأ من الذات، مستلهماً أنموذجاً إنسانياً حضارياً فعالاً، منسجماً مع دوران الأفلاك وحركة الذرات وانتشار الفوتونات، رؤوفاً بالبيئة، رحيماً بالبشرية..

فإنساننا اليوم كمثل المعدن النفيس، هو بحاجة لمن يكتشفه، ويزيل غبار المحن عنه، ويعيد صقله بعناية ورويّة ، ليظهر نوره الحقيقي مشعاً في أصقاع الأرض من جديد..

المقامــة السادســة عشــرة:
يـا أسَــفـى عَـلــى الـعَـقــل

قلتُ في نفسي لعله لا بأس بالبوح ببعض الحزن الذي يعتري النفس بشكل يخفت تارة ويتأجج أخرى، حتى أنه عند تأججه لا يكاد يقوى المرء على تحمّل قسوة أثقاله، لولا لطف المولى الذي يقذف نور الأيمان في القلوب، فتثبت أفئدة رقاق يوم تتزلزل جبالٌ راسيات وعروشٌ شامخات.. ولأن مثل هذا الحزن يمكن أن يكون مرحلة لابدّ للنفس المشتاقة من أن تخوض لجي موجها في أثناء رحلة ترقيها وتساميها، فقد يكون من المجدي أيضا التعريض بما قد يظنه بعضهم خطوطا حمراء بعد أن استسلم كثيرون لموجات متعاقبة من الإرهاب الفكري الذي مارسته أقطاب متعددة في مجتمعاتنا بأشكال متعددة وأزمنة مختلفة، حتى ألفت النفوس حالة الخنوع طمعاً بما ظنته السلام..

وقد وجدتُ ملاذاً حنوناً في قلب سيدنا يعقوب، يوم قال (يا أسفى على يوسف) حتى (ابيضت عيناه من الحزن)، وهو لم يكن له بدّ من الاستمرار في كظم ما لا طاقة لإنسان بكظمه.. وعلى الرغم من ذلك كله، كان ما يعلمه من ربّه ذي الكبرياء والعظمة – مما جهله من حوله على كثرتهم وفضل لا يخفى قد حيز لهم – هو المعين الذي

لا ينضب الذي جعل من شعلة الأمل وهّاجة في عقله وقلبه وهو يحاول إيصال قناعته إلى بنيه زارعاً لهذا اليقين (ولا تَأْيَئسوا من رَوحِ الله)، وساقياً له بماء الثبات (إنه لا يَأْيَئسَ من رَوحِ الله إلا القومُ الكافرون).. وبغير أملٍ ينيرُ باليقين أرجاء العقل والقلب، لا يكون لهذا الحزن أثرٌ في البناء يرتجى، أو دافعٌ للتغيير يحدو..

* * * * *

أما يوسُفُنا الذي هو حريٌّ بقلوبنا أن تنفطر حزناً عليه في هذا الزمن فهو "العقل"، الذي غُيّب عنا في أحرج المواقف والتحولات دون أن ننتبه، واكتفينا بأثرٍ كان قد تبقى منه حسبناه هو، فاستمرينا في السفر من غير دليل يُعتمد عليه.. وسنيناً ونحن نلهث خلف السراب تلو السراب، ومنّا من صدّق نفسه بأنه قد أمسك الدخان، ومنّا من ظَل يدور حول الرحى، على الرغم من أن البئر قد عافَه ماؤه منذ القديم.. ومنّا بعد أن أدركَ أنه لا يحوز العلامة التي يستدل بها على "مجمع البحرين" لم يكن له ملاذٌ سوى التضرع بالدعاء (ربِّ إنّي وَهَنَ العظمُ منّي واشتعلَ الرأسُ شَيباً، ولم أكُن بدعائِك ربِّ شَقيّاً)، وينزل الله تعالى الغيث حيث يشاء، وينشر رحمته على من يريد.

* * * * *

وإن تعجب فأعجب لمن يظن نفسه من أذكى الأذكياء، كيف يمكن له أن تفوته أيسر البديهيات وأكثرها أوليةً واشتراكاً بين كل أنواع العقول؟!.. ولعل أكثر مثل صارخ لهذا في مجتمعاتنا هو عندما نتناسى تماماً أن العقل هو الذي ميز الإنسان عن غيره، حتى أصبح مكلفاً بالأمانة ومخاطباً بشتى التكاليف الشرعية، فلو أن إنسانا فقد عقله (كالمستغرق في الجنون) لبطل عنه عبء حمل التكاليف الشرعية.. وكانت النتيجة المحيرة لهذا التناسي أننا، وفي قمة مبلغنا من التدين، نحّينا العقل جانباً وتركناه وراءنا ظهرياً، على الرغم من أنه حجر الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه مثل هذا البنيان..

وكيف لا تحيّرك أمةٌ لم تستطع أن تضيف شيئاً تقريباً على ما قاله أقدموها منذ نحو ألف عام، ولازال قلة من مثقفيها يجترّون بصعوبةٍ بالغةٍ وبإبتسارٍ شديدٍ ما سبقهم إليه أجدادهم منذ ذلك الحين؟!.. ويكاد يغيب عن الجميع فهم أسرار حركة الحياة، ودوافع العمران، وخفايا التطور، وأسس البناء، وهندسة التغيير..

وكيف لا تعجب من قومٍ عجزوا عن فهم تأريخهم، وإذا قرؤوا منه شيئاً لم يقرؤوا سوى صحائفه السود؟!.. حتى إذا لم يجدوا ما يرضيهم من سواد، سودوا بعض بيض صحائفه قبل أن يقرؤوها، فعجزوا أن يجدوا دافعاً إيجابياً يستلهموه منه، فكانوا عن استلهام عداه من التجارب الإنسانية أعجز..

وكيف لا تعجب من قومٍ لازالوا منذ ألف عام يحاولون إعادة اختراع العجلة صباح كل يوم، وعند المساء يكملونها مربعة، ليحتفلوا (بسَبقهم) الحضاري في الليل؟!..

ثم ألا يحيرك شأن قوم كلما ذاقت فئة منهم طعم كرسي السلطة لعنتْ من كان يتلذذ بذاك الطعم قبلها، واستفتحت بتصفية ثارات الجاهلية الأولى، ثم هدمت كل ما وجدته قائما من بناء يذكرها بمن سبق، لتعود بأوطانها إلى نقطة الصفر من جديد، حتى إذا كادت أن تغادر ذلك الصفر المقدس، جاء الزمن بمُستجِد ليذوق تفاحةَ الفتنة، ويعيد دورة الثارات من جديد؟!..

أتراك حقا لا تعجب من قوم يحاربون التخطيط ويغتالون الحضارة؟!

ألا تعجب من قوم أعادوا بناء ألف ألف صنم للّات في عقولهم، ليتهربوا من بعض تكاليف عبادة الله الواحد الأحد؟!..

أحقا أنك لا تعجب من أناس لم يزل شغلهم الشاغل في كل زمن هو أن يبحثوا عن صنم ليؤلهوه، ويحوكوا حوله الأساطير التي ترويها العجائز للصغار؟ ألا نحفظ أنا وأنت إلى اليوم بعضاً منها؟ هل سنعاقب أبناءنا بها كما عاقبنا من قبل بها الآباء؟!

ألا يكفي لإثارة عجبك منهم أنهم قد نكست عندهم الاتجاهات، حتى ألفوا وادي ردود الأفعال السحيق على أنه قمة العلى، وازدروا الصعود إلى قمم الفعل الحضاري الخلاق؟!

ألا يعجب أحدنا من نفسه أنه لو سار في درب الصلاح (ولو ظاهريا فقط) لبضع خطوات ازدرى الآخرين، وتكبّر عليهم، وجزم بحيازته قصب السبق عليهم إلى يوم القيامة؟!..

ألا يعجب أحدنا من نفسه أنه يتلف عقله في التفكير والتدبير سنيناً لأجل أن يصل إلى منصب يحلم به، أو مكسبٍ دنيوي يصبو إليه، فإذا ما خطر بذهنه خاطرٌ من أمر الآخرة، التي يكون المصير فيها نعيماً إلى الأبد أو جحيماً إلى الأبد، سارع باغلاق أبواب عقله بوجه هذا الخاطر، وعلل نفسه بخرافات جدته العجوز؟!

* * * * *

إن مستنقع الفشل المركب الذي استروح الكثيرون البقاء فيه قد ألحق الضرر البالغ المدمر بأعظم قضيتين يحيى لأجلهما الإنسان وهما: عبادة الخالق وعمارة الأرض، وخصوصا بعد أن فات أولئك القوم إدراك طبيعة الترابط الجدلي القائم بينهما..

إن الدين الحق لا يمكن أن يكون بحال أفيون الشعوب، ولكن التديّن المنحرف الخاطئ يمكن أن يكون أشد فتكاً ودماراً للشعوب والأمم من الأفيون بمراحل ومراحل، ذاك أن الأفيون يبلّد الإحساس فيبطئ من سرعة الانطلاق إلى الأمام، وقد يوقف التقدم تماماً، أما التدين المنحرف فيمكن له أن يرجع بالأمم قروناً إلى الوراء..

وعندما يفشل الإنسان في أن يضع بصمة حقيقية في سلّم بناء الحضارة، ويفقد أيضا الصدق في طلب مرضاة الله تعالى، ويستخدم مظاهر العبادة لطلب الدنيا، تحلّ الكارثة عندما يعامل الله تعالى ذلك الإنسان (أو ذلك المجتمع) بعدله لا بفضله، فيكِلَهُ إلى ما وكَل نفسه إليه من مالٍ أو منصبٍ أو شهوةٍ أو جاهٍ، ثم لا يزال ذلك المسكين يسير في التيه ما لم يلهمه مولاه لأن يجد للتغيير منفذ..

ويكفي من الخذلان أن كلاً منا على اختلاف المنهج الذي يتدين به يبحث أول ما يبحث في منهجه عن (صكوك للغفران) ندرك في أعماق عقولنا زيفها؛ ومع ذلك ينحّي أحدنا عقله جانباً ويستمر بالبحث عنها.. فيجعل من التديّن أشبه ما يكون بلعبة يمارسها المرء يخادع بها ربه، وهو في الحقيقة لا يخدع إلا نفسه..

وتحدث المصيبة الكبرى عندما يمارس المجتمع (أو جزء كبير منه) لعبة المخادعة هذه، فيخسر الدنيا والآخرة معاً.. يخسر الدنيا لأنه يترك

السير في دروب بناء الحضارة لعِظَم المجهود، ويخسر الآخرة لأنه يجانب المسير في الطريق إلى مرضاة الله لثقل التكاليف.. وأي خسارة هي أكبر من ذلك؟

* * * * *

ومن أعظم الرزايا في هذا الزمن رهط امتهنوا التجهيل واحترفوا التدجيل، تجدهم في كل فرقة، هم الذين يلقون بـ (يوسف) في غيابات الجبّ كل يوم، ثم يردمون عليه الجبّ بكل ما يستطيعون من الأحجار.. ليس لهم هَمّ سوى تجميع الأتباع ليكونوا هم رؤوس الباطل وغيرهم الذيول، تزيوا بلباس العلماء وما هم منهم، وارتدوا مسوح الصالحين، وهم أبعد الناس عنهم.. يخدرون عقول الآخرين بأساليب الترهيب والترغيب لكي تتلقى عنهم كالآلة البلهاء دون نقاش، ثم هي من بعد ذلك تستحلي السهل الذي وصفوه، وتأكل الدسم (السم) الذي بهرجوه.. ثم يقضي التابع لهم عمره في دروب الأنانية المهلكة، يقتل ويسلب ويسرق ويغش وينهب ويدمر ويهدم، بلا أدنى وازع من ضمير، لماذا؟.. لأنه أصبح لديه ما يكفي من صكوك الغفران، وهو في كل يوم يتلقى البركات من رهط قطاع الطرق أولئك..

* * * * *

لعل أحداً يقول الآن: إنك بالغت وقسوتَ في حكمك على الأشياء والأشخاص، وجوابي لن يكون مزيداً من التحليل ولا التجريد، لكني فقط سألفت نظره باحترام يغالبه أسى وأقول: ألا تعجب من أمة يقتل بعضها بعضاً، وكلهم يحفظ ما أخبر به نبيها عن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض؟!.. ألا يكفي وجود أدنى مقدار من العقل والمنطق لندرك أن قيمة الإنسان عندنا ينبغي أن لا تتردى دون مستوى قيمة القطط؟

وسيقول آخر: لقد جعلت الصورة سوداوية ومظلمة!.. وأجيب أنه من الخطأ الفادح المشين أن يبصر الطبيب مريضاً بداءٍ عضال خطير يحتاج إلى علاج فعال عاجل، ثم يقول له: اطمئن أنت سليم تماماً، اذهب ومارس حياتك كما كنت، ولا داعي لأخذ أي علاج ولا داعي أيضا إلى مراجعة أي طبيب!..

أضف إلى هذا أني هنا أخاطب من أرجو أن يكونوا هم الأطباء لمعالجة الأمراض التي انتشرت في مجتمعاتنا بعد سنين عجاف، فتكون الصراحة مجدية، بل ولازمة هنا..

وسبيلنا في ذلك هو أن نمتلئ أملاً ويقيناً برَوح الله تعالى وجميل ألطافه، ونبدأ البحث عن عقولنا (يوسفنا المغيب) التي أهملناها

لنحفزها ونفعلها من جديد، في كل شأن هي مصممة ومؤهلة للخوض فيه، ولا نكون فيها أبداً من الزاهدين – ولست أعلم موضعاً يذم فيه الزهد غير هذا –، تحدونا ثقة بالمولى الكريم بأننا سننجح في ذلك بإذن الله تعالى، نأخذ بالأسباب على بصيرة، ولا نيأس أبدا في درب النهوض الطويل، طالما أن نسائم رَوح الله تعالى عطّرَت القلوب، مؤذنةً بنور الفجر القادم..

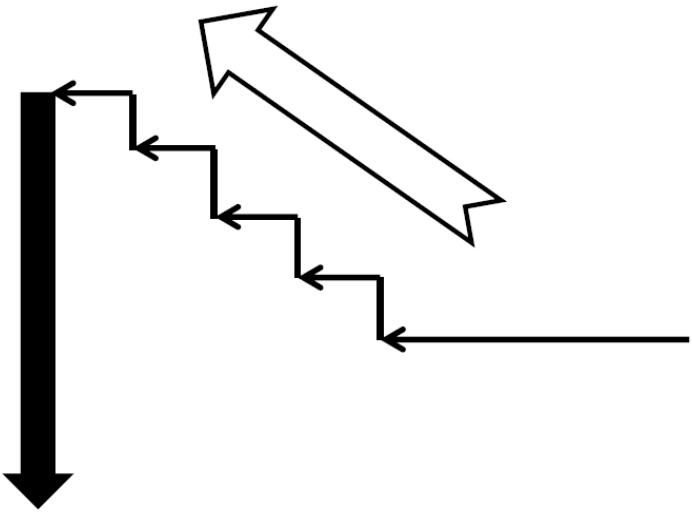

المخطط رقم ٧:

دعاةٌ على أبواب جهنم يقذفون من أجابهم فيها.. فالله الله في قلبك، ولا تسلم أمرك إلا بيد مولاك العلي العظيم.

المقامــة السابعــة عشــرة:
لـيـلـةٌ مـن ألـفِ لـيـلـةٍ ولـيـلـةٍ

وفي احدى الليالي، قالت شهرزاد: مولاي شهريار، سأروي لك هذه الليلة حكاية هي أغرب وأعجب من كل ما سمعته مني لحد الآن..

شهريار: تمهلي شهرزاد، لا يمكن ان تكون أكثر غرابة من قصة طائر العنقاء والغول ذي الثلاثة رؤوس التي سمعتها منك قبل بضعة ليال..

شهرزاد: أعذرني مولاي ولكن حكايتي لهذه الليلة هي فعلاً أعجب وأغرب من تلك بكثير!

شهريار: إذاً عجّلي وأسمعيني إياها..

شهرزاد: حباً وكرامةً مولاي..

ثم استرسلَتْ: بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنه في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، كان هناك رجل اسمه (متناقض)، وهو اسمٌ على مسمى، فأفكاره وسلوكياته وأقواله كلها متناقضة.. وفوق هذا كله، فإنه قد تزوج امرأة اسمها (متناقضة)، وحالها كمثل حال زوجها تماما.. ثم إنهما أنجبا بنيناً وبناتاً.. وبعدها أصبح لهما أحفاد كثيرون وحفيدات كثيرات، وانتشرت العائلة في أرجاء البلاد،

ولكن جميع أفرادها حافظوا باعتزاز على انتسابهم لتلك العائلة وسلوكياتها المتناقضة..

شهريار: حقاً؟!

شهرزاد: وفي إحدى السنين كانت هناك صحفيّةٌ لامعةٌ اسمها (جمانة)، كانت تعمل لدى وكالة (الواق واق) للأنباء، والتي كانت تستخدم أحدث تقنيات الحمام الزاجل في نقل المعلومات وبث الأخبار.. المهم في الأمر يا مولاي أن (جمانة) قررتْ ذاتَ يوم أن تكشف أسرار هذه العائلة المتناقضة، التي تعتز كثيرا بتراثها المتناقض، وتتطلع دوما إلى مستقبل أكثر تناقضاً، فقامت بمتابعة عينة مختارة من أفراد هذه العائلة متابعةً دقيقةً لمدة من الزمن، وجمعتْ معلوماتٍ كافيةً عنهم من مختلف المصادر، ثم قامت بإجراء لقاء صحفي معهم، فوجهت لكل منهم سؤالاً محدداً، ثم قامت بجمع أجوبتهم، ومن ثم تحليلها بواسطة (البلورة السحرية) الأكثر تطوراً، وقد كانت نتيجة التحليل مذهلة حقاً لكل من سمعها..

شهريار: هيا أسمعيني ماذا كانت النتيجة فقد جعلتني متلهفاً لذلك..

شهرزاد: مولاي، إني أحب أن أسمعك الأسئلة التي وجهَتْها لهم (جمانة) أولاً، ومن ثَم أجوبتهم عليها، قبل أن أخبرك نتيجة التحليل النهائي لتكتمل عندك الصورة..

شهريار: حسنا أنت دوماً تقنعيني بأرائك، أسمعينا الأسئلة أولاً..

شهرزاد: سمعاً وطاعة مولاي..

ثم أكملَتْ:

أول من قابلَتْ الصحفية (جمانة) من أفراد هذه العائلة كان موظفاً صغيراً في إحدى المؤسسات الحكومية، والذي ظهرَتْ عليه أعراض الثراء المريب فجأةً، فسألَتْه: أنتَ تُظهر للناس دوماً أنك رجلٌ يسعى لنشر الدين وأنك تتبرع بالكثير من مالك لهذا الغرض، فلماذا إذاً ترفض أن تكمل معاملة أي مواطن ما لم تستلم منه رشوةً؟ ولماذا تعامل زملائك والمراجعين بكل هذا الجفاء وسوء الخلق؟

واستطاعتْ أيضا مقابلة فردٍ آخر من العائلة وقد كان مؤلفاً وشيخاً يعتلي المنابر ويصدح في المحافل، وكان يلفق الروايات، ويستخدم كل أساليب الغش والتضليل المتاحة ليثبت للناس أن مذهبه (أو دينه) هو وحده الصحيح وهو الفرقة الناجية والشعب المختار، وكل المذاهب الأخرى في النار وبئس القرار، لا ينفعهم ما قدموا من عمل مطلقاً طالما أنهم لم يتبعوا مذهبه (أو دينه)، وكأن الله تعالى قد أعطاه مفاتيح الجنة ومفاتيح النار، يُدخل في أي منهما من يشاء حسب رغبته، فسألَتْه: طالما إنك تعتقد أن مذهبك هو وحده الصحيح، وأتباعه فقط يدخلون الجنة، وكل الناس سواهم في الجحيم بلا نقاش، فلماذا

تلجأ الى الكذب والتلفيق لنصرة مذهبك (أو دينك)؟ هل تشك في قدرة الله تعالى على نصرة الدين الذي ارتضى؟ أم تعتقد أن قدرة الله تعالى –حاشاه– قاصرة، فتؤيدها بكذبك على السذج من الناس؟

وفي أحد الفنادق الفخمة، قابلتْ (جمانة) شخصا آخر ينتمي للعائلة وهو سياسي معروف، يفتخر عادةً بكونه علماني وليبرالي، وينتقد الدين والمتدينين بمناسبة وبغير مناسبة، وتوجهتْ له بالسؤال الآتي: أنت غالباً ما تهاجم منافسيك في الأحزاب الدينية من خلال انتقادك لكل ما له شأن بالدين، ومن خلال التباهي بادعاء تحررك من كافة (القيود) الدينية، ألا تظن أن مثل هذه المسائل يمكن أن تُعد شخصية إلى حدّ كبير، وأن ما يهم المواطن هو ليس ادعاء الدينية أو اللادينية، ولكن ما يهمه حقا هو مدى امتلاكك للرؤيا والقدرة على تحسين أحوال البلد والناس، ومدى اخلاصك في سبيل ذلك؟

وفي ذات الفندق قابلتْ (جمانة) أيضاً سياسياً آخر من هذه العائلة، لكنه ينتمي الى أحد الأحزاب أو التيارات الدينية، وقد أصبح حالياً صاحب منصب سلطوي مهم، وسألَتْه: لطالما انتقدتَ الذي كان قبلك يشغل هذا المنصب السلطوي بأنه لا يهتم سوى بالمحافظة على كرسيه، واشباع رغباته الشخصية، وانك لو توليت المنصب فستهتم فقط بالمواطن المسكين، وبهذا الشعب الذي عانى الكثير، فلماذا لما

توليتَ المنصب أصبحتَ أكثر جشعاً وأنانية ممن كان قبلك، ونسيتَ المواطن، ونسيتَ الشعب، ونسيتَ المعاناة التي كنت تترنّم بها؟

ثم قابلتْ الصحفية فرداً من العائلة يعمل مديراً عاماً لأحدى المؤسسات الحكومية الكبرى، وسألَتْه: لماذا أنت تتصرف كالليث الكاسر مع مرؤوسيك في العمل بلا رفق ولا شفقة، وفي ذات الوقت أنت كالأرنب الخانع الذليل أمام من هو أعلى منك منصبا؟ ألا يعني ذلك أنك أصغر حجماً ووزناً من كرسيك بكثير؟

وبعدها قابلت جمانةُ وزيراً من العائلة، هو في أحسن أحواله، طائفيٌ (أو قوميٌ) متعصبٌ ومتزمتٌ، لكنه يدّعي الوطنية مع ذلك، فسألَتْه: أنت دائماً تظهر على شاشات التلفاز وتقول أنه لا فرق بين أبناء البلد الواحد مطلقاً على أساس دين أو قومية أو طائفة، ولكنك لما استلمت مسؤولية الوزارة الفلانية، حصرتَ التوظيفات وأشغال المقاولات في أقاربك وأتباع حزبك، دون حتى أبناء طائفتك (أو قوميتك) الآخرين، فضلا عن البقية من أبناء البلد، فأين ذهبتْ شعاراتُك التي ملأتَ بها آذاننا ضجيجاً؟

وفي هذه اللحظة، استسلم شهريار لنوم إجباري عميق، هرباً مما سمعه عن أحوال هذه العائلة العجيبة، التي عمّت بها البلوى في كل البلاد، فانتبهتْ شهرزاد لذلك، فهمسَتْ: مولاي.. مولاي.. يبدو أنك قد

نمتَ يا مولاي، ما أحلاك وأنت نائم، حيث تبدو كالطفل البريء .. حسنا سأكمل لك القصة في الليلة القادمة بمشيئته تعالى، تصبح على خير يا مولاي..

* * * * *

وكانت هذه هي المرة الأولى في التأريخ التي ينام فيها شهريار قبل أن يدركه الصباح، فلا البلبل غرّدَ ولا الديك صاحَ، ولكنها معضلةٌ أشدّ من طعن الرماح، فلم يجد خيراً من النوم لها سلاح!..

المقامــة الثامنــة عشــرة:
تَـغـيـيــرُ الـنـفــسِ أولاً

أرسل تلميذٌ إلى أستاذه كتاباً جاء فيه:

أما بعد يا أستاذنا الفاضل، فقد أدركتُ تماماً ما حدثتَنا عنه طويلاً من أن تغيير الأحوال في بلادنا لا يمكن أن يحدث ما لم نقم نحن بتغيير ما في أنفسنا أولاً.. ولكني أحببت أن أستزيدك فيما يحتاجه مثلي من متطلبات مسبقة للقيام بهذا التغيير.. وجزاكم الله تعالى عني ألف خير.

* * * * *

فأجابه الأستاذ:

أحمد الله تعالى إليك يا بني.. أما أهم المتطلبات المسبقة التي يجب أن تحوز عليها لتتمكن فعلاً أن تكون فاعلاً في تحقيق التغيير فهي:

أولا: أن لا ترضى مطلقاً بتعطيل عقلك، وأن لا تفكر بعقل سواك.

ثانيا: أن لا تسمح لعاطفتك بأن تتحكم بك فتجعلك ترى أن الحياة فيها لونان: أسود وأبيض فقط، فتحرم نفسك رؤية جمال الكون الناشئ من تعدد، وتدرج، وتقارب، وتنافر ما لا نهاية من الألوان.

ثالثا: أن تكون حضارياً، تسعى لإعلاء صرح الحضارة في هذا الكون، وأن تتبنى السلوك الحضاري في كل شيء، حتى مع الحيوان والنبات والجماد، واحذر أن تتلبسك جفوة الأعراب (والمقصود بالأعرابية هنا هو الميل والسلوك المخالف لمتطلبات المنهج الحضاري أيا كان مصدره).

رابعا: أن تكون إنسانياً، تحب الناس جميعاً، وإذا أبغضتَ، فتبغض معصية العاصي، وكفر الكافر، لا ذواتهما.

خامسا: أن تكون مبدعاً لا مقلداً، فلا تعتقد أن أمرا معيناً هو الصواب لمجرد أنك اعتدت عليه، أو لأن الآخرين أخبروك بذلك.

سادسا: أن تكون ربانياً، بمعنى أنك إن كنت متديناً بأية طريقة أو أسلوب، فعليك أن تحسن الفهم عن الله تعالى، فهو خالق كل شيء، ورب كل الناس بمختلف مشاربهم ومذاهبهم، وما ضرّه ولا أعجزه أن يرزقهم جميعا، حتى من يكفر به منهم، فافهم حكمة الباري وتعلم من رحمته بما يناسب إنسانيتك.

سابعا: أن تكون موضوعياً، فتضع نفسك بمقام المقابل، وتنظر إلى الأمور من الزوايا الأخرى، ولا تصدر أحكامك من خلال النظر من زاويتك فقط.

ثامنا: أن تكون متألهاً، بمعنى أن تفهم أسرار الجمال والنور الذي يسري في هذا الكون، وتدرك أن قوام هذا الكون البديع كله هو الحب بمعناه الأسمى.

تاسعا: أن تجتنب التطرف في كل شيء، سواء في الفكر أو في الدين أو في السياسة أو غيرها.

عاشرا: أن تكون متفاعلاً دوماً مع كل إشارة تأتيك من محيطك الخارجي أو من داخل نفسك، فلا تهملها لمجرد أنها بدت لك مختلفة للوهلة الأولى، فتغلق على نفسك بابا لتصحيح المسار أو لزيادة سرعة الاختراق.

حادي عشر: أن تكون عاملاً دؤوباً، وتؤمن بأنه هناك دوما ما يمكنك أن تعمله، وأن تسعى بجد لبلوغ الإتقان في عملك.

ثاني عشر: أن تبدأ بمحاولة تغيير نفسك وما حولك من الآن، وإياك والتسويف.

والسلام ختام..

* * * * *

الخاتمة

وفي ختام هذه المقامات، والتي استنطقنا فيها الضباع والثعالب والحمير، وجلْنا فيها مع الحمقى والحكماء، وتعرفنا من خلالها على أحوال بعض من الأمراء والفقراء، وجرّدنا فيها أسلوب المخططات البسيط لنعبر بواسطتها عن كبار من المعالي عالياتٍ، لابد لنا بعد هذا كله أن نضع خلاصة ما أردنا إيصاله من رسالة بهذه المقامات وهاتيك المخططات..

ولست أجد تعبيراً أكثر إيجازاً لصياغة خلاصة هذا الكتاب، من حكاية التلميذ الذي لما أراد السفر لبعض شأنه، ذهب إلى شيخه مودعاً، وطالباً منه نصيحة أخيرة يستنير بها في سفره الموحش، فأوجز له شيخه النصيحة بقوله: يا بني افعل كل زَين، واترك كل شَين..

ويالها من نصيحة عظيمة لو وجدت قلباً صادقاً يعيها.. فتكون خلاصة كتابنا بناءً عليها: التوحيد والإيمان كله زَين، فعليك بهما، والشرك والكفر كلهما شَين، فاجتنبهما، وإحذر مداخلهما ومزالقهما..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلوات ربي وسلامه على أشرف المرسلين، نبينا وسيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين..

قائمة المحتويات

الإهداء	٣
المقدمة	٥
المقامة الأولى: المواطَنةُ في بلدةِ الأغبياء	٩
المقامة الثانية: الضبعُ الأميرُ	١١
المقامة الثالثة: في قصرِ الضبعِ الأمير	١٨
المخطط رقم ١: الإنسان وهو يطيل الأمل	٢٢
المقامة الرابعة: موطنُ الكذب	٢٣
المقامة الخامسة: مَدرسةُ الحَمير	٢٥
المقامة السادسة: مُعلّقَةُ الذي لا يَدري	٢٦
المخطط رقم ٢: وكذلك تضيق عليهم الأرض	٣٣
المقامة السابعة: مُعلّقَةُ الذي يَدري	٣٤
المخطط رقم ٣: لن يغلب عسرٌ يسرين	٣٨
المقامة الثامنة: مَرداس وحكايتُه بينَ الناس	٣٩
المقامة التاسعة: الصلواتُ الوثنيّة	٤١
المخطط رقم ٤: فسادُ معتقَد الشرك	٤٤
المقامة العاشرة: مَدرَسةُ الرجُولة	٤٥
المقامة الحادية عشرة: كوخُ المَرمَر	٤٨

المقامة الثانية عشرة: إنسانٌ وليسَ سَمكة ٥٠
المخطط رقم ٥: المؤمن يقرأ القرآن فيزداد نوراً ٥٢
المقامة الثالثة عشرة: الحقيقةُ والوَهم ٥٣
المقامة الرابعة عشرة: الحُكماءُ الثلاثة ٥٤
المخطط رقم ٦: إذا هاجت رياح الفتن ٥٦
المقامة الخامسة عشرة: الأُنموذجُ الحَضاريّ ٥٧
المقامة السادسة عشرة: يا أسَفى عَلى العَقل ٥٩
المخطط رقم ٧: دعاة على أبواب جهنم ٦٨
المقامة السابعة عشرة: ليلةٌ من ألفِ ليلةٍ وليلةٍ ٦٩
المقامة الثامنة عشرة: تَغييرُ النفسِ أولاً ٧٥
الخاتمة ٧٩
قائمة المحتويات ٨٠

* * * * *